سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

٤٧٧

سورة فصلت

معانى الكلمات :

فصلت آياته : وضحت ونوعت .

فأعرض : فانصرف .

أكنة : أغطية تمنع الفهم .

وقر : صمم وثقل يمنع السمع .

حجاب : حاجز .

ويل : هلاك وشدة .

استوى : عمد وقصد .

دخان : مكونة مما يشبه الدخان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حقيقة القرآن العظيم ووظيفته وموقف الناس منه .

٢ ـ أن نعلم شدة عداوة المشركين للمسلمين ، وجزاءهم يوم القيامة .

٣ ـ أن نعرف قصة خلق الأرض وخلق الجبال من فوقها وخلق السموات .

المحتوى التربوى :

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هى التى تعالجها السورة .. الألوهية الواحدة .. والحياة الآخرة ، والوحى بالرسالة ، يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية ، وكل ما فى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهدة المكذبين يوم القيامة .

والحديث قد سبق عن الافتتاح بالأحرف المقطعة فى سور شتى،تكرار هذا الافتتاح«حا ميم» يتمشى مع طريقة القرآن فى تكرار الإشارة إلى الحقائق التى يلمس بها القلب البشرى ؛ لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبيه ، فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ، وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار

بطرق شتى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه ، ويبدأ السياق وكأن (حا ميم) اسم السورة أو لجنس القرآن ؛ إذ إنها من جنس الأحرف التى صيغ منها للفظ هذا القرآن ، وذكر الرحمن الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ، يشير إلى الصفة الغالبة فى هذا التنزيل ، صفة الرحمة ، وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين ، رحمة لمن آمنوا به واتبعوه ورحمة كذلك لغيرهم لا من الناس وحدهم، ولكن للأحياء جميعا .

والتفصيل المحكم وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المنوعة ، التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارت سمة واضحة فى هذا الكتاب ، وقد فصلت هذه الآيات ووفق تلك الاعتبارات فصلت قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتمييز .

وقام هذا القرآن يؤدى وظيفته يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المكذبين المسيئين ، ويبين أسباب البشرى وأسباب الإنذار بأسلوبه العربى المبين لقوم لغتهم العربية ، ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستحب ، وقد كانوا يعرضون فلا يسمعون فعلا ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر ، وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع ، وأحيانا كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن فى نفوسهم، فكأنهم صم لا يسمعون، وقالوا : قلوبنا فى أغطية فلا تصل إليها كلماتك ، وفى آذاننا صم فلا تسمع دعوتك ، ومن بيننا وبينك حجاب فلا اتصال بيننا وبينك ، فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا ، أو أنهم قالوا غير مبالين : نحن لا نبالى قولك وفعلك ، وإنذارك ووعيدك فإذا شئت فامض فى طريقك ، فإنا ماضون فى طريقنا لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل وهات وعيدك الذى تهددنا به فإننا غير مبالين .

قالوا هذا إمعانا فى العناد ، وتيئيسا للرسول ﷺ ثم يمضى فى طريقه يدعو ويدعو ، ليكف عن الدعوة ، لما كانوا يجدونه فى قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين ، والرسول ﷺ كان يمضى مأموراً أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ، فما هو إلا بشير يتلقى الوحى فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد ، وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل ، والأمر بعد ذلك لله لا يملك منه شيئا ، فهو ليس إلا بشراً مأموراً ، فأخلصوا لله العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ، واستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولا شمالا ، واستغفروه لسالف الذنوب ، واستغفروه من الشرك الذى واقعتموه .

ثم توعد مَنْ ترك الاستقامة بالدمار والهلاك ، الذين عبدوا من دونه مَنْ لا يملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ودنسوا أنفسهم ، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له ، ولم يصلوا ولا زكوا ، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة ، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ،

وهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار ، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم ، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم فى الآخرة ، ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين ، ووصفهم وجزاءهم فقال : إن المؤمنين بهذا الكتاب ، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان ، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة للإخلاص والمتابعة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا نافد، بل هو مستمر مدى الأوقات .

وينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به ، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه ، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم ، ويسوونهم بالرب العظيم الملك الكريم ، الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة فى يومين ، ثم دحاها فى يومين ، بأن جعل فيها رواسى من فوقها ، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار ، فكمل خلقها ودحاها وأخرج أقواتها ، وتوابع ذلك ، فى أربعة أيام ولا ينبئك مثل خبير ، فهذا الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص، وهذا الحصر لأجل من سأل فى كم خلقت الأرض وما فيها .

ثم بعد أن خلق الأرض قصد إلى السماء فى حالة كونها دخانا وأشار إلى أن خلق السموات ثم فى زمن طويل ، فى يومين من أيام الله ، ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة ، وهى : انقياد هذا الكون لله ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقة اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته ، فقد جاء الأمر بأن تنقاد السموات والأرض فى طائعتين أو مكرهتين ، فهو أمر لابد من نفوذه ، قالتا : بل طائعين ، فليس لنا إرادة تخالف إرادتك .

يقول صاحب الظلال : « إنها إماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته ؛ فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذى يخضع للناموس كرها فى أغلب الأحيان ، إنه خاضع حتما لهذا الناموس لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جداً فى عجلة الكون الهائلة ،و القوانين الكونية تسرى عليه رضى أم كره ، ولكنه هو وحده الذى لا ينقاد طائعا طاعة الأرض والسماء ، إنما يحاول أن يتفلت ، وينحرف عن المجرى الهين اللين ، فيصطدم بالنواميس التى لابد أن تغلبه وقد تحطمه وتسحقه ـ فيستسلم خاضعاً غير طائع ، إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم ، تصطلح كلها مع النواميس الكلية ، فتأتى طائعة وتسير هينة لينة مع عجلة الكون الهائلة ، متجهة إلى ربها مع الموكب،متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب وتأتى بالخوارق » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ رحمة القرآن الكريم للعالمين ، وأثرة فى حياة البشرية .

٢ ـ الكون كله خاضع لإرادة الله ـ تعالى ـ وليس هناك من يتمرد على طاعة الله إلا من كفر .

٣ ـ وجوب الاستقامة على شرع الله ، والاستغفار من كل ذنب صغيراً أو كبيراً .

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى
ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

معانى الكلمات :

فقضاهن : فأحكم وأبدع خلقهن .

أوحى : دبر .

مصابيح : كواكب منيرة مشرقة .

صرصرا: باردة شديدة والصوت والهبوب.

نحسات : مشؤومات أو ذوات غبار .

الخزى : الذل والهوان .

يوزعون : يحبس أولهم إلى آخرهم فيجتمعون جميعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مصارع الغابرين من قوم عاد وثمود .

٢ ـ أن نعلم علة الكفر والطغيان فى المجتمعات البشرية .

٣ ـ أن نعرف سلطان الله فى فطرة الكون وسلطان الله فى تاريخ البشر ، وجزاء الكافرين .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق أن خلق السموات والأرض قد تم فى ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة ، ولكن مع أنه قدير ، فهو حكيم رفيق ؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة ، ثم دبر الله عز وجل التدبير اللائق بكل سماء التى اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ، فرتب فوراً فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ، ثم زين الله جل فى علاه السماء القريبة من الأرض بمصابيح وهى الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، وحفظها من المسترقة حفظا ، وذلك تقدير العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره العليم بمواقع الأمور .

فكيف ـ بعد هذه الجولة الكونية الهائلة ـ يكون موقف الذين يكفرون بالله ويجعلون أنداداً ؟ كيف .. والسماء والأرض تقولان بها ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، وهذا النمل الصغير العاجز من البشر

الذى يدب على الأرض يكفر بالله فى تبجح واستهتار ، وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار ، فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان أو إن أعرضوا عن العبادة والتقوى والتوحيد بعد هذه الدعوة أو إن أعرضوا عن الاستقامة إلى الله والاستغفار إليه ، مصرين على رفضهم وموقفهم ، فقل : خوفتكم وحذرتكم عذابا شديداً يستأصلكم ويجتاحكم ، مثلما اجتاح قبيلتى عاد وثمود ، وحل عليهم وبيل العقاب ، وذلك بظلمهم وكفرهم ، وهذا الإنذار المهروب المخيف يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين .

ويقص السياق مصرع عاد وثمود لما كان ، وكيف كان ، فقد جاءتهم الرسل من كل جانب ، وأعملوا معهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وأنذروهم من وقائع الله فيمن كان قبلهم من الأمم ، وأنذروهم عذاب الآخرة ، وأمروهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وقالوا : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، وما دمتم بشراً ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به .

وإلى هنا أجمل مصير عاد وثمود وهو واحد ؛ إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة ، ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل : فعاد قد استكبروا فى الأرض ، والأرض ، والحق أن يخضع العباد لله وألا يستكبروا فى الأرض وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله ، فكل استكبار فى الأرض فهو بغير الحق ، استكبروا واغتروا وقالوا : من أشد منا قوة ، وهو الشعور الكاذب الذى يحسه الطغاة الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم وينسون أن الذى خلقهم من الأصل أشد منهم قوة ؛ لأنه هو الذى مكن لهم فى هذا القدر المحدود من القوة ، ولكن الطغاة لا يذكرون .

وبينما هم يعرضون عضلاتهم ، ويتباهون بقوتهم يفجأهم المصرع المناسب لهذا العجب المرذول ، العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة فى أيام نحس عليهم ، وإنه الخزى فى الحياة الدنيا ، الخزى اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد ، ذلك فى الدنيا وليسوا بمتروكين فى الآخرة ، فعذاب الآخرة أشد خزيا لهم وهم لا ينصرون فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا من قبل شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، على رجاء النصر لهم .

وأما ثمود قد بين الله لهم ودعاهم ووضح لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام ، فخالفوه وكذبوه ، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ، فبعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا بما كانوا يكسبون من التكذيب والجحود ، ونجى الله عز وجل الذين آمنوا من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم ، وتقواهم لله عز وجل ، وتنتهى الجولة على مصرع عاد وثمود ، والإنذار بهذا المصرع المخيف المرهوب ، ويتكشف لهم سلطان الله الذى لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مريد .

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله فى فطرة الكون ، وسلطان الله فى تاريخ البشر ، يطلعهم على سلطان الله فى ذوات أنفسهم التى لا يملكون منها شيئا ، ولا يعصمون منها شيئا من سلطان الله ، حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصيهم فى الموقف المشهود ، وتكون عليهم بعض الشهود ، إنها المفاجأة الهائلة فى الموقف العصيب ، وسلطان الله الذى تطيعه جوارحهم وتستجيب ، وهم يوضحون بأنهم أعداء الله ، فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع .. إلى أين ؟ إلى النار ، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم فى حساب ، وإن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفترى وتستهزئ ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروى عنهم ما حسبوه شراً ، فقد يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهى معهم ؟ بل كيف وهى أبعاضهم ؟! وها هى ذى تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين ، وعن الله رب العالمين ، يا للمفاجأة بسلطان الله الخفى ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبى وتستجيب .

يقول صاحب الأساس : « رأينا أن سياق السورة سار كما يلى : عرض علينا موقف الكافرين من القرآن ، ومن دعوة رسول الله ﷺ ، ثم رد على هذا الموقف :

١ ـ يعرض مضمون الدعوة .

٢ ـ بما يترتب على هذا الموقف من آثار بديهية البطلان .

٣ ـ ثم بإنذارهم بعذاب الدنيا .

٤ ـ ثم بإنذارهم عذاب الآخرة .

وبعد هذا البيان الذى رأيناه .. ، والذى لو وجد عقل أو إنصاف أو سماع تدبر لترتب على ذلك انزجار ، إلا أنه حيث لا عقل ، ولا إنصاف ، ولا سماع تدبر ، فإن هذا كله لم يفد فيهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله عز وجل قدير وتتجلى مظاهر قدرته فى الأرض والسماء وما فيهما ، فالضعيف قوى بحماه .

٢ ـ ضرورة الاتعاظ بما حدث للأمم السابقة حتى لا يصيبنا ما أصابهم .

٣ ـ الكبر من الصفات المذمومة التى يجب ألا يتصف بها المسلم .

٤ ـ فى يوم القيامة لا يكون للإنسان سيطرة على جوارحه وأعضائه ، ولا يستطيع إنكار ما كان يفعله فى الدنيا .

معانى الكلمات :

تستترون : تستخفون .

أرداكم : أهلككم .

مثوى لهم : محل إقامة دائمة .

وقيضنا لهم قرناء : هيأنا للمشركين أصحاب سوء .

فزينوا : فحسنوا .

حق عليهم القول : ثبتت كلمة العذاب عليهم .

والغوا فيه : ائتوا بالباطل عند قراءته .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ضلال الكافرين وكيف ضلوا هذا الضلال المبين .

٢ ـ أن نعلم كيد المشركين حيال القرآن العظيم .

٣ ـ أن نعرف موقف الكافرين يوم القيامة وتغيظهم على من خدعوهم .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق علينا بشكل غير مباشر عدم استفادتهم من الإنذار وسببها ، وإصرارهم على حرب القرآن واستهالهم العقوبات بذلك ، وندم بعضهم حيث لا ينفع الندم ، وقد لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء : إن نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذى قدر على إنطاق كل حيوان ، ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فهو لا يخالف ولا يمانع ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ومن كان هذا شأنه فكيف لا ينطقنا ، وكيف لا ننطق إذا أمرنا ، وإنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء

أصلا ، ولكنكم إنما استترتم لظنكم أن الله لا يعلم الخفايا من أعمالكم ، وذلك الظن الذى ظننتم بربكم أهلككم ، فأصبحتم من الخاسرين فى الدنيا والآخرة .

ويجىء التعقيب الأخير مليئا بالسخرية،فالصبر الآن صبر على النار،وليس الصبر الذى يعقبه الفرج وحسن الجزاء ، إنه الصبر الذى جزاؤه النار قراراً ومثوى يسوء فيه المقام ، فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ، ولم ينفكوا به من الثواء فى النار ، وإن يطلبوا الرضا فما هم من المرضيين أوإن يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه ، لم يعتبوا أى : لم يعطوا العتبى ، أى الرجوع إلى الدنيا ولم يجابوا إليها ، وقال ابن كثير فى الآية : « أى سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا فى النار لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات ... .. » ، فاليوم يغلق الباب فى وجه العتاب ، لا الصفح والرضا الذى يعقب العتاب .

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله فى قلوبهم ، وهم بعد فى الأرض ، يستكبرون عن الإيمان بالله ، فالله قد قيض لهم ـ بما اطلع على فساد قلوبهم ـ قرناء سوء من الجن ومن الإنس ، يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، فلينظروا كيف هم فى قبضة الله الذين يستكبرون عن عبادته ، وكيف أن قلوبهم التى بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسارة ، وقد قيض الله وأحضر قرناء يوسوسون لهم ، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء ، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح ، وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه ، وأن يرى كل شىء من شخصه حسنا ومن فعله، فهذه هى المهلكة وهذا هو المنحدر الذى ينتهى دائما بالبوار، وإذا هم فى قطيع السوء ، فى الأمم التى حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس ، قطيع الخاسرين .

قال **الفخر الرازى** رحمه الله : « اعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه وأحاط عقله بمعانيه وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيراً فى منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم لبعض ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ إذا قرئ وتشغلوا عن قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته ، وكانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوا باطلا ، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبون محمداً ﷺ ، وهذا جهل منهم لأنهم فى الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل،والله تعالى ينصر محمدًا بفضله» .

ورداً على قولتهم المنكرة يجىء التهديد المناسب ، وسرعان ما نجدهم فى النار ، وسرعان ما نشهد حنق المخدوعين ، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وأغروهم بهذه

المهلكة التى انتهى إليها مطافهم ، ففى مقابلة ما اعتقدوه فى القرآن وعند سماعه ليذيقهم الله العذاب الشديد ، ولفظ الذوق إنما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد ، فإذا كان القليل منه عذابا شديداً ، فكيف يكون حال الكثير منه ، وهم يجاوزون على أسوأ ما عملوا وهو الكفر والمعاصى ، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصى وغيرها ، فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشر .

قال النسفى : « ولنجزينهم أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم وهو الكفر » ذلك الجزاء الأسوأ جزاء أعداء الله ثم فسر ما هيته فقال : ﴿ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ فلا يخرجون منها جوزوا بذلك جزاء بسبب جحودهم بآيات الله أى القرآن .

قال الفخر الرازى رحمه الله : « واعلم أنه تعالى لما بين أن الذين حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد ، يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ والسبب فى ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جنى وإنسى » ، وقد تعاونا على الإضلال ، ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ فى النار جزاء إضلالهم إيانا ، وينفعهم هذا الكلام هناك ، ومن ثم لا نجد السياق يجيبهم على النداء .

قال القاشانى : أى حنق المحجوبون واغتاظوا على مَنْ أضلَهم من الفريقين عند وقوع العذاب ، وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران بسببهم ، وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم وأنزل مراتبهم ، كما ترى مَنْ وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرد عليه ويتغيظ ، ويكاد أن يقع فيه مع غيبته ويتحرق » .

ونلاحظ فى هذه الآيات أنها بدأت الكلام عن قرناء الكافرين الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وختمت بالكلام عن هؤلاء القرناء ؛ إذ يدعو عليهم من ضلوا بسببهم إذا دخلوا النار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب حسن الظن بالله تعالى ، وهو أن يرجو أن يغفر الله له إذا تاب من زلة زلها ، وأن يرجو رحمته وعفوه إذا كان فى حال العجز عن الطاعات .

٢ ـ الحذر من أصدقاء السوء ، وجلساء الشر الذين يزينون للإنسان الفساد ، ويغرونه بالمعاصى ، ويجرونه إلى الرذائل .

٣ ـ كيد المشركين لا ينتهى ، واليقظة أمر مطلوب فالعدو لا ينام .

معانى الكلمات :

استقاموا : ثبتوا على الحق حتى الممات .

أولياؤكم : أنصاركم وأعوانكم .

تدعون : تطلبون وتتمنون .

نزلا : ضيافة وكرامة .

ولى حميم : صديق مخلص .

حظ عظيم : نصيب وافر من السعادة .

نزغ : وسوسة أو صارف .

لا يسأمون : لا يملون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نتعرف على صفات الداعية إلى الله ومكانته ونصحه ، وصف روحه ، ولفظه ، وحديثه ، وأدبه .

٢ ـ أن نعلم بشرى أهل الإيمان وما يحصل لهم عند الموت .

٣ ـ أن نعرف أن فى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من ذكر صلة الوسوسة والإغراء ، إلى صلة النصح والولاء ، صلة المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح ، إن الله لا يقيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائكة يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ، ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

يقول صاحب الظلال : « والاستقامة على قولة : ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ، الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها ، الاستقامة عليها شعوراً فى الضمير ، وسلوكا فى الحياة ، الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها ، أمر ولا شك كبير وعسير ، ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير ، صحبة الملائكة ولهم ، ومودتهم ، هذه التى تبدو فيما حكاه الله عنهم ، وهو يقولون لأوليائهم المؤمنين :

لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ثم يصورون لهم الجنة التى يوعدون تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أن يسره علمه ، ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ويزيدونها لهم جمالاً وكرامة نزلاً من غفور رحيم ، فهى من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته ، فأى نعيم بعد هذا النعيم ؟ » .

قال القاشانى : وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم فى التوحيد الحقيقى ، والإيمان اليقينى والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة فى الطريق إليه ، غير ناكثين فى عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين فى عمل ، كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة ، فتنزلت عليهم » .

ويرسم السياق صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه ، ويوجه إليها رسوله ﷺ وكل داعية من أمته ، وكان قد بدأ السورة بوصف جفوة المدعوين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير ، ليقول للداعية : هذا هو منهجك مهما كانت الأمور .

قال القاشانى : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ؛ لكونه أشرف المراتب ، ولاستلزامه الكمال العلمى والعملى ، وإلا لما صحت الدعوة » .

ويقول صاحب الظلال : « إن النهوض بواجب إلى الله فى مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال : إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها على مصالحها ، وعلى مركزها الذى قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء .

إن النهوض بواجب الدعوة فى مواجهة هذه الظروف أمر شاق ، ولكنه شأن عظيم ...إن كلمة الدعوة حينئذ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض،وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء، ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة ، ومع الاستسلام لله الذى تتوارى معه الذات ، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض أو بسوء أدب ، أو بالتبجح فى الإنكار ، فهو إنما يتقدم بالحسنة ، فهو فى المقام الرفيع ، وغيره يتقدم بالسيئة فهو فى المكان الدون : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لا يستوى أثرها ـ كما لا تستوى قيمتها ـ مع السيئة والصبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشر بالشر ، برد النفوس الجامعة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجماح إلى اللين » .

إن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسها ، فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان ، وإذا اعترضتك سيئة فادفعها بالحسنة كذلك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك ، وما يلقى هذه الخصلة التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس؛ فما يقبلها إلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن بين الله تعالى طريقة معالجة عدو الإنس ، يبين طريقة معالجة عدو الجن ؛ فإذا وسوس الشيطان وسوسة تنخس القلب نحسا ، فاستعذ بالله من شره ولا تطعه ، إنه هو السميع لاستعاذتك ، العليم بنزغ الشيطان ، فشيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، أما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك وردّه كيده ، فالغضب قد ينزغ ، وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة ، أو ضيق الصدر عن السماحة ، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولاته ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثغرته .

قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى لما بين .. أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيها على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات .. ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هى العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض » .

ويبدأ السياق بجولة مع آيات الله الكونية : الليل والنهار والشمس والقمر ، وفى المشركين من كان يسجد للشمس وللقمر مع الله ، وهما من خلق الله ، وكان الأمر بالسجود لله الذى خلق الشمس والقمر والأرض التى هى محل الليل والنهار ، إن كانوا يدعون عبادته فهذا طريقها ، وإن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه وينزهونه عن الأنداد ولا يملون من عبادته سبحانه ، وكيف تمل وهى روح الحياة ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة الخالصة لله تعالى وليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ هى أفضل الأعمال .

٢ ـ على الداعية خاصة والمسلم عامة أن يتجمل بالصبر والعفو عند المقدرة .

٣ ـ على العاقل أن يختار أصدقاءه من أهل الخير والصلاح ويتجنب رفقة السوء .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾
٤٨١

معانى الكلمات :

خاشعة : يابسة ، جدبة .

اهتزت : تحركت بالنبات .

ربت : انتفخت وعلت بالنبات .

يلحدون : يميلون عن الحق .

عزيز : غالب بقوة حججه .

حميد : محمود من خلقه .

وقر : صمم .

مريب : موقع فى الريبة والقلق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على قصة الأرض وحياتها .

٢ ـ أن نعلم موقف الملحدين من القرآن العزيز وما يقولونه عنه .

٣ـ أن نعلم سنة الله فى الأمم السابقة فى اختلافها على أنبيائها وما جاءتها به من الهدى والنور.

المحتوى التربوى :

**قال الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أن الله تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر،أتبعها بذكر آية أرضية ،فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ والخشوع التذلل والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ أى تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ ويعنى أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء الأجساد بعد موتها . . . ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا هو الدليل الأصلى وتقريره : إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعودة الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه البتة ، والله أعلم » .

وقال : « اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، عاد إلى تهديد من ينازع فى تلك الآيات » .

فالذين يكفرون ويعاندون فى آيات الله بألا يرتبوا عليها لازمها العقلى ، أو يرفضوا أن يعتبروها آية تدل على الله وأسمائه وصفاته ، لا يخفون على الله ، فالله تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ، ففيه تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وهل يستوى من يلقى فى النار مع من كان آمنا مطمئنا يوم القيامة ، هل يستوى الكافر مع المؤمن ؟ لا يستويان ، ثم قال تعالى تهديداً للكفرة : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ من خير وشر ، إنه سبحانه عالم بكم وبصير بأعمالكم فيحاسبكم عليه .

ويستطرد السياق إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ، والقرآن كتاب عزيز قوى منيع الجانب ، لا يدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد ، والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، ولا يذكر ماذا هم ، ولا ماذا سيقع لهم ، كأنما ليقال : إن فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها ، لذلك يترك النص خبر ﴿ إِنَّ ﴾ لا يأتى به ويمضى فى وصف الذكر الذى كفروا لتفظيع الفعلة وتبشيعها ، ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ ، والعزيز له معينان : **أحدهما** : الغالب القاهر . **والثانى** : الذى لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالبا ، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته .

ثم قال : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ قال الفخر : « وفيه وجوه : **الأول** : لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجىء كتاب من بعده يكذبه . **الثانى** : ما حكم القرآن بكونه حقا لا يصير باطلا ، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا . **الثالث** : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه .. **الرابع** : يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد كتاب فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ، ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له . **الخامس** ... المقصود أن الباطل لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه » .

وهذا الكتاب منزل من عند الحكيم الحميد سبحانه ، والحكمة ظاهرة فى بنائه ، وفى توجيهه ، وفى طريقة نزوله ، وفى علاجه للقلب البشرى من أقصر طريق ، والله الذى نزله خليق بالحمد ، وفى القرآن ما يستجيش القلب محمده لحمده الكثير .

هذا ولما هدد الله تعالى الملحدين فى آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه ، وألا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم فى أول السورة، ويربط السياق بين القرآن وسائر الوحى قبله ، وبين رسول الله ﷺ وسائر الرسل

قبله ، فهو واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة ، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة .

يقول صاحب الظلال : « أى شعور بالأنس ، والقوة ، والصبر ، والتصميم ، توجيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين فى طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم جميعا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟ وأى شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثراتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يمضى وهو يشعر أن أسلافه فى هذا الطريق ، هم تلك العصبة المختارة من بنى البشر أجمعين ؟ ... ومما قيل للرسل وقيل لمحمد ﷺ خاتم الرسل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ذلك كى تستقيم نفس المؤمن وتتوازن ، فيطمع فى رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبداً ، ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً» .

ثم لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه فى لفظه ومعناه ، وأنه مع هذا لم يؤمن به المشركون مما يدل على أن كفرهم به كفر عناد وتعنّت ، بين فيما يأتى أنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم ؛ لقالوا على وجه التعنت ما سيقصه علينا ، فهم فى كل حال متعنتون معاندون ، ولو جعلنا القرآن بلغة العجم ، وهو مع ذلك ظاهر الإعجاز ، فاجتمع له أن يكون كتابا أعجميا معجزاً نزل على إنسان عربى ، لقالوا مع هذا تعنتا وعناداً : لولا فصلت آياته ، أقرآن أعجمى ومخاطب عربى ؟ فآيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها مطعنا لأنهم غير طالعين للحق ، فقل : إن القرآن للذين آمنوا إرشاد إلى الحق ، وشفاء لما فى الصدور من الشك ، إذ الشك مرض ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم ثقل وصممم ، والقرآن عليهم عمى لا يهتدون إلى ما فيه من البينات ، فإنه لعزته يأبى أن يصل إلى قلب كافر ، ومن عزته أنه لا يبقى فى قلب إذا لم يعطه حقه من العناية والرعاية ، ولعدم قبول الكافرين وانتفاعهم كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة ، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه فقال بعضهم هو حق وقال بعضهم هو باطل كما اختلف قومك فى كتابك ، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب لأهلكهم فلولا القيامة لقضى بينهم فى الدنيا ، والكفار لفى شك من القرآن شديد ، ومن عمل صالحا فلنفسه نفع ، ومن أساء فإنه يضر نفسه ، وما ربك بمعذب غير المسىء ولا هو بظلام لأحد من العبيد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التهديد الشديد لمن يحرف آيات الله ويؤولها على غير المراد منها .

٢ ـ القرآن محفوظ بعناية الله ، وهو دواء وشفاء لأهل الإيمان .

٣ ـ المستقيم ينفع نفسه ، والملحد يضرها ، والله عز وجل حكم عدل .

الجزء ٢٥ الحزب ٤٩

إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها
وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين
شركاءى قالوا آذناك ما منا من شهيد ﴿٤٧﴾ وضل
عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴿٤٨﴾
لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس
قنوط ﴿٤٩﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته
ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى
ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا
ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴿٥٠﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان
أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض
﴿٥١﴾ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم
به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴿٥٢﴾ سنريهم
آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق
أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴿٥٣﴾ ألا إنهم
فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴿٥٤﴾

معانى الكلمات :

أكمامها : أوعيتها وأغلفتها .

آذناك : أعلمناك بالحقيقة .

ضل : غاب .

محيص : مفر .

يسأم : يمل .

يؤوس قنوط : عظيم اليأس ، فاقد الأمل .

نأى بجانبه : تباعد عن الشكر بكلِّيَّته .

عريض : كثير مستمر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أمور الغيب من علم الساعة وما تخفيه الأكمام من ثمرات وما تخفيه الأرحام ترد إلى الله وحده .

٢ ـ أن نتعرف على مشهد من مشاهد الخزى للكافرين يوم القيامة .

٣ ـ أن نعرف بعض أسرار النفس البشرية ، وأنه سبحانه له فى كل جيل آيات تظهر له .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله فى بعض مجالاته صورة موحية تمس أعمال القلوب ، وذلك فى الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه المشركون ويجيبون ، والساعة غيب غائر فى ضمير المجهو ، والثمرات فى أكمامها سر غير منظور، والحمل فى الأرحام غيب كذلك مستور ، وكلها فى علم الله، وعلم الله بها محيط ، ويذهب القلب يتتبع الثمرات فى أكمامها ، والأجنة فى أرحامها ، يذهب فى جنبات الأرض كلها يرقب الأكمام التى لا تحصى ، ويتصور الأجنة التى لا يحصرها خيال ، وترتسم فى الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطيق الضمير البشرى أن يتصور من الحقيقة التى ليس لها حدود .

ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفا أمام هذا العلم الذى لا يند عنه خاف ولا مستور ، هنا فى هذا اليوم الذى لا يجدى فيه جدال ولا تحريف للكلم ولا محال ، فماذا هم قائلون ؟ قالوا : أعلمناك أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك ، إنك علمت يارب من قلوبنا الآن أنا لا نشهد بنفس الشهادة الباطلة ، وما منا أحد اليوم يشهد بأن لك شريكا ، وما منا إلا من هو موحد لك ، وضل عنهم ما كانوا يعبدون من قبل ، ذهبوا عنهم فلم ينفعوهم ، وأيقنوا ما لهم من مهرب ، ولا محيد لهم من عذاب الله ، ما عادوا يعرفون شيئا عن دعواهم السابقة ، ووقع فى نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه وتلك أمارة الكرب المذهل ، الذى ينسى الإنسان ماضيه كله ، فلا يذكر إلا ما هو فيه .

ذلك هو اليوم الذى لا يحتاطون له ولا يحترسون منه مع شدة حرص الإنسان على الخير ، وجزعه من الضر ، وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء ، مكشوفة من كل ستار عاطلة من كل تمويه ، والتعبير يرسم صورة دقيقة صادقة للنفس البشرية ، التى لا تهتدى بهدى الله ، فتستقيم على طريق .. يصور تقلبها وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة ، واغترارها بالسراء وجزعها من الضراء ، فهذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير فهو ملح فيه مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه ، وإن مسه الشر مجرد مس ، فقد الأمل والرجاء ، وظن أن لا مخرج له ولا فرج ، وتقطعت به الأسباب ، وضاق صدره وكبر همه ؛ ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته ، ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف .

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر ، استخفته النعمة فنسى الشكر ، واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره ، وقال هذا لى نلته باستحقاقى وهو دائم على ، ونسى الآخرة واستبعد أن تكون، يكفر بقيام الساعة لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر، ويقول: كان ثمة ميعاد فليحسن إلَىَّ ربى فى هذه الدار بتمنى على الله مع إساءته العمل وعدم اليقين وانتفخ فى عين نفسه فراح يتألى على الله ، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له ، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله ، ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده .

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه : استعظم وطغى ، وأعرض ونأى بجانبه ، فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضاءل ، ويتضرع ولا يمل الضراعة فهو يؤوس قنوط القلب ذو دعاء عريض باللسان .

وأمام هذه النفس العارية من كل رداء المكشوفة من كل ستار ، يسألهم : فماذا أنتم صانعون إن كان هذا الذى تكذبون به من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقا ، وكنتم تعرضون أنفسكم لعاقبة التكذيب والشقاق ، إنه احتمال يستحق الاحتياط ، فماذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟ ! ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون .

ثم يتجه السياق إلى الكون العريض ، يكشف عن بعض ما قدر فيه ـ وفى ذوات أنفسهم ـ من مقادير.

يقول صاحب الظلال : « إنه وعد الله لعباده ـ بنى الإنسان ـ أن يطلعهم على شىء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء ، وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، هذا الدين وهذا الكتاب ، وهذا المنهج ، وهذا القول الذى يقوله لهم ، ومن أصدق من الله حديثا ؟

ولقد صدقهم الله وعده ، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق فى خلال القرون الأربعة عشر التى تلت هذا الوعد؛ وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم، وما يزال يكشف لهم فى كل يوم عن جديد ...

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيراً جدا منذ ذلك الحين ، فقد تفتحت لهم الآفاق ، وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله ، لقد عرفوا أشياء كثيرة لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير ... ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسم الكون فقد عرفوا عن الجسم البشرى وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

وعرفوا عن النفس البشرية شيئا .. إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم ؛ لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه ، ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح ستجىء ، وما يزال الإنسان فى الطريق ، ووعد الله ما يزال قائما : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

وهذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد ، وهو الذى أعطى وعده عن علم وشهود ، ويفصح السياق عن علة الكفر الكبرى فإن كل سوء فى المواقف والأقوال أثر عن الكفر باليوم الآخر ، أو الشك فيه ، أو الغفلة عنه ، ومن ثم يذكر التهديد ، فالمخلوقات كلها تحت قهره سبحانه وفى قبضته ، وتحت طى علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، وظواهرها وبواطنها ، بكل شىء محيط .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن نؤمن بالغيب الذى علمه عند الله تعالى .

٢ ـ ذم اليأس والقنوط والكفر للنعم ونسيان المنعم .

٣ ـ الحرص على تأمل ما فى الآفاق والأنفس ففيهما من دلائل القدرة الإلهية ما يزيد اليقين .